سلسلة محاضرات فكرية | ٢ |

أفي الله شك

محمد باقر السيستاني

أفي اللّه شكٌّ

محمّد باقر السيستانيّ

محاضرة ألقيت على جمع من طلبة الجامعات

بتاريخ ٨ جمادى الأولى ١٤٣٨هـ

في النجف الأشرف

هذه السلسلة

مجموعةُ محاضرات أُلقيت في جمع مـن أسـاتذة وطلاب الجامعات ، وكانت في الحـديث عـن حقيقـة الـدين وحقّانيّتـه والحاجـة إليـه فـي ظـلّ الإثـارات المعاصـرة ، وقـد تضـمّنت توضـيح أنبائـه الكبـرى وقيمه النبيلة ، وبيـان أنّ الـدين ينطلـق فـي رسـم أبعاد الحياة والإنسان مـن منطلـق عقلائـيّ راشـد ، وكذلك ينطلق في تشريعاته وقوانينه مـن منطلـق فطـريّ سـليم ومـن مقتضيات الضـمير الإنسـانيّ ، وتضمّنت أموراً أخرى تفصيليّة .

وكـان ذلـك كلّـه بهـدف الحـثّ والإعانـة علـى التبصّر الذي يقتضيه العقل ويوصي به الدين .

وقد يلحظ الناظر مضامين مشتركة بـين أكثـر من محاضرة ، لأنها جـاءت فـي أوقـات مختلفـة غيـر متقاربة ولمجـاميع عـدّة ، وكـان تحديـد مضـمونها على وفق اقتضاء محور البحث فيها ، وذلك أدّى إلـى هذا الاشتراك.

ولم أشأ تغيير وضعها وجعلها في صـورة كتـاب واحد يتألّف من فصول ، لأنّ لوضعها هذا إيجابيّاته التي سوف يلمسها الباحث عند قراءتها .

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، لاسيّما (محمّد) خاتم النبيّين، وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

يسرني الحضور معكم في هذا اللقاء لغرض التشاور والتناصح فيما يتعلق باهتماماتنا المشتركة في تبصرنا لهذه الحياة ومسيرتنا فيها معاً إلى غاياتها[1].

---

(١) هذه المحاضرة طُبعت من قبل بعنوان (محاضرة في العقيدة) وقد تضمنت وصايا عامة لم نوردها هنا في هذه الطبعة لعدم علاقتها بالحديث عن وجود الإله.

محور البحث وأهميته

محور البحث في هذا اللقاء هو وجود الله سبحانه خالقاً ومخططاً لهذا الكون المنظَّم والمقنَّن والجميل، وهذه هي الخطوة الأولى لتبصر الإنسان بالحياة وحقيقتها وغاياتها وتشخيص المنهج العملي الملائم لها والسلوك الصحيح فيها، لأن وجود الإله هو الأساس الأول للدين؛ فالدين هو رسالة الله تعالى إلى الإنسان ويشتمل على أنباء ثلاثة كبرى تغيّر حياة الإنسان.

والنبأ الأول من هذه الأنباء هو: وجود إله خالق لهذا الكون والكائنات ومن جملتها الإنسان.

والنبأ الثاني: أن هذا الإله معني بالإنسان وقد بعث إليه رسائل يفصح من خلالها عن نفسه وخصائصه وغاياته ويبين عنايته بالإنسان ويؤكد فيها على قواعد السلوك الصحيح في هذه الحياة.

والنبأ الثالث: كون هذا الإنسان موجوداً خالداً يبقى بعد الممات ليلقى نتائج معرفته وسلوكه في هذه الحياة من خير أو شر، قال سبحانه: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[1].

---

(١) الزلزلة:٧-٨.

وقد اشتمل الدين نفسه ـ من خلال النظر الى أحوال الرسل وقدراتهم ـ على إثباتات لحقانية الرسالة مثل دلالة سيرة الرسول قبل البعثة على أنه لم يكن بمقدوره بحالٍ أن يأتي بمضامين هذه الرسالة ومثل اشتمال الرسالة على الإنباء بالعديد من حوادث المستقبل بشكل جازم[1] وهو ما لا يتأتى للرسل، ومثل خوارق اتفقت للرسل.

وإثباتات الرسالة هذه إذا تمت فهي تثبت وجود الإله ولكن إثبات وجود الإله لا يتوقف على ذلك.

دلالات الكون والكائنات على وجود الإله

إن اكتشاف وجود الإله تكفي فيه دلالات الكون والمشهد الكوني حين يتأملها الإنسان ويعيها، وقد نبهت على ذلك نصوص الرسالة القرآنية.

إنّ من أكثر الأمور التي يحتاجها الإنسان الوعي

---

(١) مثل الإخبار عن غلبة الروم على الفرس في الزمان الذي خشي المسلمون من غلبة الفرس على الروم وذلك في قوله تعالى: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ**﴾ (الروم:٢-٤)، وقد غلب الروم الفرس فعلاً بعد تسع سنوات من نزول هذه الآية.

وتحفيز الفكر والانتباه، إننا نرى كثيراً من الأشياء ونشهد كثيراً من الحوادث، ولكننا لا نعي ولا نتأمل إلاّ قليلاً منها بالاستنطاق والمقارنة والاستشفاف لما وراءها.

إن الوعي هو التفات الإنسان إلى الدلالات التي يستبطنها المشهد الذي يقف عليه واعتباره بها، فقد يقف اثنان بمدارك متقاربة أمام مشهد ما ذي دلالات واضحة، فترى أحدهما ينتقل إلى تلك الدلالات ويعتبر بها، والآخر يمرّ عليها وهو غافل عنها.

ونحن نجد أمثلة كثيرة لهذه الحالة في حياتنا الشخصية والأسرية والاجتماعية.

فقد يقف عدد من الناس مثلاً على حادثة بخصائص مشهودة للجميع ولكن بعضهم لا يستنبط أيّة دلالة منها على المسبب لها ولكنَّ بعضاً آخر منهم يتصف بالنباهة يجد في تلك الخصائص مؤشرات على المسبِّب، وقد يحدّد جماعة مقترحاً لعمل فيرى بعضهم أنه مقترح غير عملي ويكون مصيباً ولكن بعضاً آخر يُصر على أنّ هذا المقترح عملي ولا سبب لفشله، لأنه لا يقرأ موجبات الفشل جيداً، وهذه أمور تتكرر في الأسرة والمجتمع كثيراً، وقد يستخدم المتكلم تعبيراً يورّي فيه عن مقصوده فلا ينتقل

المخاطب العادي إلى مقصوده الذي يرمي إليه ولكن النابه يلتفت من صياغة الكلام إلى التورية فيه، إلى غير ذلك من الأمثلة.

إن من أوضح الأمثلة لهذا الأمر ما نراه في المشهد الكوني أمامنا من السماوات بآفاقها الرحبة الواسعة، والأرض بروعة تركيبها ومكوناتها، والتي هي مصنع كوني كبير مهيأ لاستقبال الحياة والكائنات الحية، بما فيها من تنوع الأحياء من أنواع النبات والحيوان، مع الإنسان بقدراته الفريدة وإمكاناته المتميزة بين الكائنات الحية.

إن التأمل بإمعان وصفاء في الكون ومظاهره البديعة يبيّن على نحوٍ واضح أنه صنيعة يد مبدعة وعقل باهر وقدرة فائقة.

وقد نبهت على ذلك النصوص القرآنية للرسالة الإلهية على نحوٍ رائع.

إنّ من مميزات القرآن الكريم منطقه المميّز في العقلانية إذ يؤكد دوماً على متابعة المنطق والعقل ويُحفز تفكير الإنسان في هذا الاتجاه ويحث على مراعاة العدل والمعروف.

ومن جملة تلك المميزات لفت الإنسان إلى دلالات

المشهد الكوني والارتقاء به إلى آفاق عالية ومهيمنة على هذا المشهد، واستنطاقه على وجه رائع وتحفيز مشاعر الإنسان بأسلوب بليغ.

ولنستمع أولاً ـ لأجل التذكير الإجمالي بهذه الدلالة ـ إلى أحد أبلغ المقاطع القرآنية وأكثرها تحفيزاً للفكر والتأمل، وهو ما جاء في سورة الرعد..

يقول تعالى: ﴿**المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ * اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[1].

---

(١) الرعد:١ـ٤.

فهذه الآيات تنبه على النظم والإبداع في عدد من المظاهر اللافتة للنظر في السماء والأرض.

التوضيح العلمي لدلالة الكون على الله سبحانه

ويمكن توضيح هذه الدلالة بأسلوب علمي وفق استدلالات عدة، نقتصر على ذكر ثلاثة منها..

دلالة نظم الكون على الخالق[١]

الدليل الأول: دلالة النظم في الكون والكائنات على موجد مبدع وهو يشتمل على مقدمتين:

المقدمة الأولى: لا شك أنّ هذا المشهد الكوني يشتمل على نظام بارع ويتمثل بمستويين:

المستوى الأول: هو المستوى الظاهر الذي يجده الإنسان بالتأمل في كل كائن من الكائنات وفي المشهد الجمعي لها فيجد كثيراً من التناسق والتناسب والروعة في كلٍّ من الوجود الفردي والجمعي لها.

---

(١) يُنظر في تفصيل هذا الدليل (الأنباء الثلاثة الكبرى، وجود الإله) ص:٥٥.

ومن هذا القبيل ما يطلع عليه الإنسان بوساطة الأدوات المكبِّرة والمقربة من المجاهر الإلكترونية والضوئية فيرصد تفاصيل الكون المشهود مثل أجزاء المادة وتفاصيل الخلية الحية، ويرصد أيضاً ما غاب عن العين من أعماق البحار وآفاق السماء. فهذه أمور ظاهرة للإنسان ولكن بمعونة الآلات.

والمستوى الثاني: هو المستوى الباطن من النظم المتمثل بالقوانين العلمية المعقدة التي يبتني عليها النظم الكوني والتي تم اكتشاف كثير منها في العلوم ذات العلاقة لا سيما في الثورة العلمية الحديثة في علم الكونيات والفيزياء والكيمياء والأحياء وسائر العلوم الحديثة[١]، ولا تزال هذه العلوم تكشف بنوداً رائعة وعميقة من هذا النظام.

المقدمة الثانية: إن النظم والتقنين يشيران إلى قوة مدبِّرة وعاقلة؛ لأن أي فعل منظَّم لا يجوز أن يكون موجوداً بالصدفة، ووليد عوامل منتجَة تلقائياً، بل لا بدّ أن يكون من نتاج كائن عاقل مهيمن عليها.

---

(١) يُنظر في تفصيل ذلك (الأنباء الثلاثة الكبرى، وجود الإله) ص:٦٣ وما بعدها.

ومن هذا نرى أنّ علماء الآثار حين يطَّلعون على ترتيبات معقدة يتوقعون أن تكون أَثَراً لحضارة إنسانية أنتجتها، وهذا المعنى بديهي بحسب إدراك العقل الراشد.

إن كبار علماء الفيزياء[١] والكيمياء والأحياء الذين يستكشفون هذه القوانين لأول مرة لا يزالون يبدون عجبهم بهذا الانتظام الكوني والقوانين البديعة الرائعة الحاكمة عليه، ولعل هذا الشعور يكون خافتاً لدينا من جهة أننا نتلقنها ولا نمارس استكشافها واستنباطها.

إن القضاة الذين يستدلون على حقيقةٍ ما من خلال منبهاتها وشواهدها يجدون حيوية في الدلائل لا يجدها الآخرون الذين يستمعون لهذا الاستدلال من جهة عدم الممارسة الحية له.

يقول آينشتاين ـ كما ينقل عنه أنتوني فلو ـ: (لم أجد على الإطلاق تعبيراً أفضل من تعبير (إيماني) للوثوق بالطبيعة العقلانية للحقيقة والقدرة الخاصة في الوصول للعقل البشري، في حين أن العلم يفتقر لهذه الثقة. إذا كان المبشرون يريدون أن يستفيدوا من ذلك فهذا شأنهم،

---

(١) يُنظر تفصيل ذلك في المصدر السابق نفسه ص:٨١.

فليس هناك علاج لذلك)[١].

وقال أيضاً ـ كما في المصدر نفسه ـ: (تديّني يتضمن تقديراً متواضعاً للروح المتفوقة اللانهائية التي تُظهر نفسها في أدق التفاصيل التي نستطيع إدراكها بعقول واهية وضعيفة، هذه القناعة العاطفية العميقة بوجود القوة المنطقية المتفوقة التي تتبدى في الكون الذي لا يمكن الإحاطة به هي التي شكّلت فكرتي عن الإله)[٢].

---

(١) ليس هناك إله ص:١٢١.

(٢) وقد ينقل عن بعض رسائل آينشتاين أنه أنكر (الله) سبحانه وعدّ ما جاء في التوراة أساطير بحتة، ويبدو ذلك مناقضاً لكلماته الأخرى كالتي أوردناها أعلاه.

والذي أتوقعه أنه يذعن بإله العلم دون إله الدين، فإله العلم هو الذي سنّ الكون على وفق معادلات رياضية معقدة يشعر الإنسان حين يطلع عليها مهما اتسع علمه بأنه صبي صغير أمام مشهد معقد كبير. وأما إله الدين فهو ـ مضافاً إلى ما تقدم ـ يكون محباً للخير وكارهاً للشر، ومعنياً بالإنسان، وقد أرسل رسائل إليه يبلغه بالتعليمات التي يجب عليه مراعاتها، وقد تضمنت نبأ بقاء الإنسان بعد الممات. والإذعان بالإله بهذه المواصفات يعني الإذعان بالدين والرسالات الإلهية، فهو إذا أنكر وجود (الله) عنى به ما يتصف بالصفات التي جاءت في الدين، لا أصل وجود خالق مبدع للكون

إنّ الالتفات إلى الانتظام الكوني يفي بالدلالة على الصانع القدير ولا يحتاج معلومات تخصصية حديثة، بل هو مشهود على نحو واضح، فكلنا يشعر أن الكون منظم على سنن وقواعد في المستوى المادي والنفسي والاجتماعي، فالأشياء كلها ـ أسباب ومسببات ـ جارية

وسننه العامة.

وفي حال عدم تمام هذا التوقع والجمع، فمن المتوقع أن موقفه كان مضطرباً وغير مستقر، فهو طوراً ينكر الإله على وفق الاتجاه الغالب على علماء الطبيعة في العصر الحديث باعتقاد أن لكل شيء في الكون سبباً طبيعياً فلا حاجة إلى وجود الإله، وطوراً ينظر إلى دقة سنن الكون من المنظور العلمي الحديث فيذعن بالعقل الكلي الموجد لهذه السنن.

وفي ذلك أيضاً ما يمكن أن يكون منبهاً إلى دلالة الكون على وجود الإله، وإنما قلنا (منبّهاً) ولم نقل (دليلاً) لأن الدليل من المنظور العلمي إنما هو الحجة الموضوعية وليس قول بعض أهل العلم مهما كان جليلاً.

على أن آينشتاين عالم فيزياء، وليس عالم فلسفة ومنطق، وموضوع وجود الإله من سنخ المعلومات الفلسفية والمنطقية، لكن من القسم الواضح منها وليس المعقد، نظير القضية الرياضية (١+١=٢) فإنها من القضايا الرياضية الواضحة وليست المعقّدة.

على أنساق وقواعد مرتبة. فالانتباه إلى هذا الموضوع لا يحتاج إلى العلم بمقدار ما يحتاج إلى الوعي والتأمل والإمعان.

دلالة تغيّر الكون على الصانع

الدليل الثاني: دلالة تغير الكون على الصانع.

ويتألف هذا الدليل من مقدمتين:

المقدمة الأولى: أن الكون متغير؛ لأن كل الكائنات تتطور من صورة إلى أخرى، فإذا نظرت إلى الكائنات الحية فإن الملحوظ أنها تسير في خط من التوليد والزوال، فالدجاجة تبيض، ثم تكون البيضة دجاجة أخرى، وهكذا يستمر وجود (الدجاجة)، وإذا نظرت إلى الكائنات غير الحية فإنها أيضاً تتطور من صورة إلى أخرى بأشكال مختلفة بعضها ظاهرة مثل انتقال المواد غير الحيوية إلى كائنات حيوية من النباتات والحيوانات، وكذلك العكس، وبعضها الآخر مما كشف عنه العلم الحديث.

المقدمة الثانية: أن الشيء المتغير لا بد له من سبب. بيان ذلك: أنه قد يخطر في ذهن الإنسان ابتداءً أنه

لا مانع من وجود سلسلة غير متناهية من المتغيرات يعقب بعضها بعضاً، فلتكن الدجاجة متولدة من البيضة والبيضة من دجاجة أخرى، ثم تلك الدجاجة من بيضة أخرى إلى ما لا ينتهي، ولا حاجة إلى وجود شيء وراء الدجاجة والبيضة يكون سبباً لهما.

ولكن الذي يجده الإنسان بشيء من التأمل أن هذا المعنى أمر غير معقول، لأن كل حلقة من هذه السلسلة التي فرض عدم تناهيها مسبَّبة طبعاً، فما من دجاجة في هذه السلسلة إذا أشرت إليها بخصوصها صح أن تقول: إنها مسبَّبة ومتولدة من بيضة، وإلا كانت لدينا دجاجة لم تنشأ من بيضة، وهذا يعني انتهاء السلسلة إليها. وكذلك أنه ما من بيضة في هذه السلسلة إذا أشرت إليها صح أن تقول: إنها متولدة من دجاجة، وإلا كانت لدينا بيضة لم تنشأ من دجاجة، وهذا يعني انتهاء السلسلة إليها.

وإذا كانت كل حلقة من هذه السلسلة مسببة عن شيء وراءها فإن جميع تلك السلسلة تكون مسببة طبعاً، لأن صفة كل مجموعة تابعة لصفة أجزائها وحلقاتها، فإذا اتصفت الأجزاء والحلقات في صفة كانت كل تلك المجموعة متصفة بتلك الصفة أيضاً. وعليه فإذا كانت

كل الدجاجات والبيض في السلسلة المفترضة مسببَّة عن بيض ودجاجات تسبقها كان مجموع السلسلة مسببَّة طبعاً، فلا بد أن يكون سببها أمراً وراءها؟

إذن فإن سلسلة الدجاجة والبيضة ـ وقد ذكرناها مثالاً لأجل التقريب ـ لا بد أن يكون لها بداية وهي إما الدجاجة أو البيضة، وعليه فلا بد من سبب لها وراءها قد أوجد الدجاجة أو البيضة ابتداءً.

وهكذا الكون المادي، حيث إنه مؤلف من حلقات متسلسلة ينتج بعضها عن بعض، فإنه لا بد له من سبب وراءه، ولا غنى عن ذلك بافتراض كون هذه السلسلة غير نهائية لأن كل حلقة في السلسلة مسببَّة فكيف تكون السلسلة كلها مستغنية عن سبب خارجي؟

دلالة حدوث الكون على الصانع(١)

الدليل الثالث: دلالة حدوث الكون على سبب وراءه:

ويتألف من مقدمتين:

المقدمة الأولى: إن هذا الكون المادي أمر حادث.

---

(١) يُنظر تفصيل ذلك (الأنباء الثلاثة الكبرى، وجود الإله) ص:٢٥٩.

بيان ذلك: أن هناك سؤالاً قديماً وهاماً حول الكون، وهو أن هذا المشهد الكوني ومكوناته هل هو أمر أزلي قديم لا أول له ولا بداية؟ وهل المادة التي يتكون منها أزلية وقد كانت موجودة منذ الأزل؟ وهل القوانين الكيميائية والفيزيائية والأحيائية التي تسيّر الكون وتنظّمه وتولّد ملايين الكائنات المختلفة كانت مرتبة وأزلية من تلقاء نفسها وليست أموراً حادثة؟

أم أن هذا المشهد ومكوناته أمور حادثة وجدت بعد أن كانت معدومة.

الصحيح هو الثاني، فالكون كله حادث لوجهين:

١ ـ أن الكون في تغير دائم ـ كما تقدم في الدليل الثاني[١] ـ، فالمادة وأجزاؤها وما يتكون منها دائماً في تغير وتطور بلا فرق بين الكائنات الحية وغيرها، فتطور كثير من الأشياء أمر ظاهر بالفهم العام بالنظر في أحوال الكائنات التي نطلع عليها من قرب، وقد أوضح ذلك العلم الحديث بالاطلاع على الوضع الدقيق للمادة ابتداءً

(١) يلاحظ أن فكرة (تغير الكون) استخدمت في هذا الدليل لإثبات حدوث الكون أولاً ثم إثبات حاجته إلى سبب، وفي الدليل الثاني استخدم لإثبات حاجته إلى السبب على نحو مباشر.

من أجزاء الذرة إلى المجرات العظيمة، فالمادة وما يتكون منها في تقلب دائم.

والإدراك الإنساني كلما وجد شيئاً متغيراً متقلباً يرى أن هذا الشيء لا بد أن يكون حادثاً، ولا يجوز أن يكون قديماً، فهذا المعنى أمر جُهّز به الإنسان على أنه جزء من الوعي الإنساني الفطري، فإذا رأينا شيئاً متقلباً ودوّاراً بحسب طبيعته فإننا ندرك أن هذا الشيء قد وُجد منذ حين، ولا نقبل أن يكون هذا الشيء ـ على تقلبه هذا ـ أمراً قديماً.

٢ ـ ما انتهى إليه علم الكونيات في العصر الحديث من ترجيح حدوث الكون بالانفجار الكبير لمادة مكثفة للغاية انفجرت انفجاراً هائلاً وولدت أنواع الطاقات والمجرات بمكوناتها، وأن الكون لا يزال يستهلك تلك الطاقة المتولدة، ولا تزال المجرات تتباعد ـ بالرغم من وجود قانون الجاذبية بين الأجسام ـ عن بعضها في انتظام يعبر عن نشأتها من طاقة متولدة من انفجار كوني سابق.

وهذه المادة على وفق الترجيح السائد في هذا العلم ليست أزلية بل إنها متولدة من الانفجار، ولهذا صرحوا

بأنه لا شيء هناك قبل الانفجار الكبير[١].

وقد جاء في علم الأحياء التاريخي أن الحياة حالة وليدة على الأرض بعد أن تهيأت لذلك ـ وقد حدثت قبل ٤،٥ مليار سنة تقريباً بحسب الدراسات العلمية ـ إذ لم يكن وضع الأرض من قبل جاهزاً لنشأة الحياة فيها، وهذا أمر معروف.

إذن لا شك في أن الكون والكائنات وانتظامها وقوانينها أمر حادث.

المقدمة الثانية: أن كل أمر حادث يحتاج علة وسبباً، وليس من المعقول أن يحدث شيء بلا علة.

وهذه الفكرة من القضايا البديهية الواضحة التي يشعر بها الإنسان مبكراً، إذ نجد أن الطفل ذا الخمس سنوات مثلاً إذا صادف لعبة جديدة سأل: من جاء بهذه اللعبة؟ وإذا افتقد لعبة يسأل: أين هي؟ ولماذا لا توجد في مكانها؟

هذا المبدأ يمثل بنية التفكير الإنساني، فالعمليات الاستنباطية في الحياة الشخصية والأسرية والاجتماعية

---

(١) لمزيد تفصيل في هذا الاستدلال يُنظر (الأنباء الثلاثة الكبرى، وجود الإله) ص:٢٧٠ وما بعدها.

تنطلق من استخراج ما وراء الحوادث من العلل والأسباب، كما أن الأبحاث العلمية تحاول دائماً فهم علل الأمور الحادثة في المجالات المختلفة من الاستقراء والتجربة، فالطب مثلاً يبحث عن أسباب الأمراض الحادثة وعن نتائج استعمال وتناول الأطعمة والأغذية، منطلقاً من أن كل ما يحدث إنما يحدث عن علة وسبب.

إذن ليس من المعقول أن يكون هناك شيء حادث من غير علة.

فهذا مبدأ بديهي وواضح في الفكر الإنساني.

وعلى هذا الأساس يُعرف بوضوح أن لهذا الكون والكائنات وأنظمتها وقوانينها سبباً موجباً لها مهيمناً عليها.

تلخيص واستنتاج

وعلى ضوء هذه الأدلة المستمدة من العقلانية الواضحة والبديهيات العلمية نستنتج أن كل مشاهد هذه الحياة تمثل الصانع القدير، فمشهد الحياة والكون كله أشبه بمعرض فنان نشر فيه لوحاته الفنية، حيث إن الزائرين له يجدون في كل لوحةٍ بعضاً من آثار شخصية هذا الفنان وقدرته الفنية وبراعته في الرسم والتعبير، أو

أشبه بمعرض شركة لمنتجاتها وصناعاتها التي تمثل القدرات الفنية للشركة وللقائمين عليها. فالكون كله معرض للصنعة الإلهية بما يدل عليه من قدرة وعلم وحنكة وتدبير، مما يتمثل بأنواع بديعة ومختلفة من التمثل، من أصغر ذرة وكائن حي من الجزيئات والخلايا، مروراً بطبائع الحيوانات العجيبة مثل النمل والنحل، وانتهاءً بالكائنات العظيمة من المجرات وما فيها من شموس وأقمار وكواكب.

لا فرق في هذا الأمر بين أن يكون بعض هذه الكائنات قد وجدت بخلق مستأنف لها أو يكون كل هذا المشهد بدأ من نقطة واحدة وتسلسل في ملايين السنين إلى هذا المشهد الرائع، لأن هذه النقطة كانت مشتملة ـ لا محالة ـ على استعدادات وقابليات تفتقت عن كل هذا التنوع تَفَتُّقَ بيضة الطاووس عن هذا الكائن الرائع بكل تفاصيل روعته.

فوجود الله سبحانه هو حقيقة واضحة متمثلة في تضاعيف كل ذرة من ذرات الكون وكل كائن من آحاد الكائنات وأنواعها.

ومن هذا حقّ للواعين بهذه الحياة والمتبصرين فيها أن يَشهدوا الله سبحانه في كل شيء فيها، فيستدلّوا بالأشياء

على صانعها وبارئها، وينظروا إليها كما ينظرون إلى سائر المشاهد في الأمثلة التي ذكرناها.

وهنا أسئلة ثلاثة نطرحها لزيادة إيضاح الفكرة:

ما سبب غياب الدلالة على الصانع عن ذهن الإنسان[١]؟

السؤال الأول: ما سبب غياب الدلالة على الصانع عن ذهن الإنسان؟

إذا كان وجود الله سبحانه واضحاً جداً فلماذا تغيب هذه الدلالة عن الإنسان، فلا نستحضر الله سبحانه في رؤيتنا للأشياء عادةً، حتى أن بعضاً من أهل العلم بالعلوم الطبيعية كالفيزياء والأحياء والكيمياء لا يذعنون بذلك، مع أننا لا نجد غياباً للدلالة على الفاعل في المعارض الفنية والصناعية؟

بيان العامل النفسي لانطفاء دلالة الأشياء

الجواب: إن السبب في ذلك عامل نفسي، وهو أثر الاعتياد في إطفاء دلالة الأشياء، لا سيما في الأمور المهيمنة

---

(١) يُنظر في تفصيل هذا السؤال وجوابه (القواعد الفطرية العامة للمعرفة الإنسانية والدينية، القاعدة الثالثة) ص:٧٩ وما بعدها.

على حياة الإنسان التي يحتاج فيها لشيء من الارتقاء في تفكيره إلى مستوى أوسع لكي يدرك ما فيها من دلالات.

ونمثل لذلك بفكرة بسيطة وميسرة ومشهودة في أحوال الطفل، إذ أننا نجد أن الطفل بعد أن يعي بعض الوعي يسأل عن الأمور التي يلتفت إلى جدتها وحدوثها ـ انطلاقاً من فكرة: أن لكل حادث علة ـ فهو إذا وجد ثوباً جديداً أو لعبة جديدة سأل عمن جاء بها، وإذا وُلد له أخ يسأل: من أين أتى هذا الوليد؟ وكذا الحال في كل ما يلفت نظره ويعنى به ويشهد حدوثَه بعد غيابه، أو فقدانه بعد وجوده.

ولكننا لا نجد الطفل في بداية وعيه يسأل عن منشأ وجوده هو ولا عن الأشياء التي عهدها من قبل من ثياب وغرفة وأبوين وغير ذلك، بل لو سُئِل عن مثل ذلك من قبل والديه لتعجب، وكأنه يقول: إن وجود ذلك أمر طبيعي فلماذا السؤال؟!

مع أنه ليس هنالك فرق يُفرض بين الثياب واللعب القديمة وما استجد له مثلاً. ولا بين الأخ الجديد وبين نفس الطفل أو إخوته الذين هم في مثل عمره أو أكبر منه.

وليس السر في ذلك إلاّ أنه أنس بهذه الأشياء ووجدها جاهزة دون تلك الأخرى، فهو لا يستطيع أن يرتقي إلى

آفاق عُليا ويقيس أشياء بأشياء أخر من منطلق تماثلها المنطقي.

ولو ازداد عمره ونما وعيه لرأيت أنه يتدرج في طرح هذه الأسئلة ولا يقنعه تهرب الوالدين من الجواب. وكذلك الحال لو أن الوالدين أثارا في ذهنه هذه الأسئلة، فترى أن ذهنه يتحفز للتفكير في هذه الأشياء ويرتقي إلى تلك الآفاق فيزول أثر الاعتياد والمعايشة والمعهودات الذهنية في إطفاء دلالات الأشياء.

اكتشاف سبب انطفاء دلالة الأشياء على الخالق

وهذا هو السبب الذي يؤدي إلى عدم انتقال الإنسان إلى دلالات الكون والكائنات على وجود الصانع القدير؛ فإن الإنسان يولد ويشب ويكبر وهو في أحضان هذا الكون ونظامه ونسقه، فلا يستثيره ما ينطوي عليه من الحالات البديعة والتناسق المميز والنظام المتماسك، بل يُعدّ ذلك أمراً طبيعياً.

ولهذا ترى أنه يطبق قانون: (لكل حادث سبب) في كل شؤون الحياة الخاصة والعامة وفي الأبحاث العلمية وغير ذلك، إلا أنه إذا وصل إلى الحديث عن منشأ ولادة الكون والكائنات فقد يجوّز أن (يحدث شيء من لا

شيء)، مع أنّ بداهة العقل الذي يدرك هذه القضية تشهد على أنه لا فرق بين شيء وشيء، فالحدوث أمر يحتاج إلى سبب، ولن يوجد شيء تلقائياً من غير سبب يؤدي إليه، فهذه الفكرة بديهية للغاية، ولكنها في سائر مجالاتها لم تخفت دلالتها بفعل المعايشة والاعتياد، ولهذا يذعن الإنسان بها، ولكنه إذا انتقل إلى أمر الكون والكائنات ونظمها ـ وهي أعظم من كل الحوادث التي يعتبر وجود سبب لها بالبداهة حتى إذا لم يدرك لها سبباً فعلاً ـ فإنه قد يستسيغ فكرة أن ينشأ شيء من لا شيء.

إن هذا التجويز لا ينشأ عن وجود استثناء منطقي في قاعدة (إن لكل حادث سبباً) بأن يقال: (إلا في أصل وجود الكون ونظمه وقوانينه)، فإن هذا الاستثناء لا معنى له منطقياً، وإنما ينشأ من جانب نفسي، وهو غياب الشعور بالدلالة في هذا المورد، نتيجة المعايشة والاعتياد، فلا يستطيع الإنسان أن يرتقي من الحوادث المادية التي يشهد حدوثها إلى تأمل عامّ يجري في الأمور التي يعيشها.

أهمية وعي الإنسان في إحياء تلك الدلالة

إن هذه المسألة ـ نعني الانتقال من نظم الكون وحدوثه إلى وجود الخالق ـ تابعة لمقدار وعي الإنسان

وقدرته على الارتقاء بتفكيره وتأمله إلى آفاق عليا، فيعرف أن الأشياء كلها من وادٍ واحد، وأنه لا مغزى للتفريق بين شيء ماضٍ وآخر يتجدد في محضر الإنسان إلا بمقدار ما يكون من الفرق بين ما يعهده الطفل وما يتجدد بمرأى منه.

إن وعي الإنسان بهذه المسألة يحتاج إلى بعض التيقظ والانتباه والتفطن، ولا يحتاج إلى علم غزير وتخصص في علم خاص، وإن كان بمقدور العلم أن يعمّق نظرته ويوسع مداركه.

إن الرؤية الصافية والصادقة، والتأمل الواعي، والمقارنة البسيطة بين الأشياء كفيلة بأن تؤدي إلى انتقال ذهن الإنسان إلى وجود الصانع. وقد ذكر في التراث أن أعرابياً سُئل عن مصدر إيمانه بالخالق فقال: (إن البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدلان على العليم الخبير؟!).

إن الانتقال إلى وجود الصانع من الكون ومشاهده في الواقع أمر سهل وميسور بهذه البساطة حقاً، ولا يحتاج إلى معادلات صعبة ولا أفكار تخصّصية.

مدى العلاقة بين الوعي والعلم

يبقى ما أشير إليه من أن بعض أهل العلم في مجال الطبيعة كالفيزياء لم ينتقلوا إلى وجود الإله من هذا الكون، وإن كان بعضهم الآخر رأى دلالة قوانين الكون على وجود الإله، فكيف يمكن القول: إن الكون في حال الوعي به يدل على الإله على نحوٍ واضح؟

والجواب: إن الاطلاع على العلوم الطبيعية لا يوجب بالضرورة قدرة للباحث على استنطاق الأشياء عما وراءها.

ومن الجائز لبعض المتخصصين[1] في العلوم أن لا يمتلك من الوعي ما يمتلكه بعض آحاد الناس؛ لأن التخصص في العلوم إنما يمثل الاطلاع على قواعد العلوم وقوانينها، والقدرة على توصيفها وتوظيفها، ولا يمثل بالضرورة وعياً بشأن نشأتها ومصدرها.

نعم قد يكون الاطلاع على بعض العلوم وممارستها كالمنطق والفلسفة والمعرفة والنفس أمراً مساعداً على

---

(١) يُنظر في تفصيل ذلك (القواعد الفطرية العامة للمعرفة الإنسانية والدينية) ص:٩٨.

توجيه الإنسان، لا لأن مبادئ هذا الاستنطاق موضوع تخصصي، فإنه ليس تخصصياً، بل هو موضوع بسيط، كما لاحظنا في قضية: (دلالة النظم على الخالق) وقضية: (إن لكل حادث سبباً)، ولكن لكي يستطيع الباحث أن يرتقي في معالجة الأمور الغامضة والأسئلة المطروحة من منطلق عامّ مهيمن على الموضوع وقادر على تصنيف المواضيع والمقارنة بينها واستكشاف ما يمكن أن يكون فارقاً أو لا.

إننا نحتاج إلى وعي بدلالات الحوادث كالوعي الذي يحتاج إليه القاضي في استكشاف مصدر الجريمة من توصيف الحالة وملابساتها، بل هو أبسط بكثير، إلا أن عظم المشهد وهيمنته على الإنسان هو الذي يؤدي إلى اختفاء هذه الدلالة.

وقد يعيق وعيَ الإنسان حواجزُ ذهنية ونفسية تجاه ما يمكن أن يؤدي إليه الوعي، فمن كان له تعلق عاطفي شديد بمن ثبت جرمه وفق مؤشرات موثوقة ومقنعة لعامة العقلاء ترى أنه لا يجد تلك المؤشرات كافية في إثبات الجرم ويرى الحكم به تسرعاً جائراً كما نلاحظ ذلك وأمثاله في شؤون حياتنا وحياة المجتمع المختلفة وكذلك من كان مصراً على إنكار أمر ما إذا وُصفت له

مؤشراته فإنه يشكك فيها.

وتتكون الحواجز النفسية[١] أمام الإذعان بالخالق لعوامل عديدة منها: الحواجز التي حصلت في أوروبا منذ بداية النهضة العلمية الحديثة نحو رجال الكنيسة من جهة اضطهادهم للعلماء واصطدامهم بمعطيات العلم التي ظنوها مخالفةً للدين والفلسفة اليونانية التي وظفت لحمايته، فأدى ذلك إلى تكوّن حواجز في أوساط علماء الطبيعة نحو الدين، ثم نحو إثبات الإله الخالق، لأن في التصديق بوجوده تصديقاً وإقراراً بسلطة رجال الكنيسة.

إن الإنسان حين ينظر إلى الكائنات بوعي يجدها صورة ممثلة لله سبحانه وقدراته. وإذا نظر إلى نفسه بوعي شعر بانتمائه إلى الله سبحانه، ووقف على شواهد الانتماء ومظاهره بالوجدان، كما يجد الابن ـ إذا تأمل في نفسه وخصاله ـ أنها امتداد لأبويه وخصالهما، كما قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[٢].

---

(١) يُنظر في تفصيل ذلك (الأنباء الثلاثة الكبرى، وجود الإله) ص:٣٤ـ٣٥.

(٢) فصلت: ٥٣.

عناية الرسالات الإلهية بتحفيز فكر الإنسان

لقد جاءت الرسالات الإلهية إلى الإنسان لغرض تحفيز إدراكه وإثارة السؤال في ذهنه عن مصدر هذا الكون والكائنات وسننها، فقد وُهب الإنسان العقل والقدرة على التفكير، وهو وليد هذه البيئة وقوانينها، فهو يألفها ويعيشها ويأنس بها منذ كان؛ ولذلك فهو يحتاج ـ لكي يرتقي إلى السؤال عن أصل هذا المشهد ـ إلى شيء من التحفيز والإثارة، حتى يفكر في الأمر ويتأمله مليّاً، فإذا هو يجده واضحاً جداً، وكأنه كُشف له الغطاء عن أمر يجده ولا يعيه.

ولهذا جاء في كلام الإمام علي عليه السلام في (نهج البلاغة) أن الله سبحانه أرسل الأنبياء لإثارة دفائن العقول ولفت الإنسان إلى دلالات الكون والكائنات على الصانع القدير، قال عليه السلام يصف إرسال الأنبياء: **(فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْدَاثٍ**

تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ)[1].

إن الرسالات الإلهية التي أرسل الله تعالى بها رسله إلى الإنسان تهدف إلى إسعافه ليعرف آفاق الكون والحياة وما يغيب عن إحساسه ـ بحسب طبيعة وجوده ـ من وجود الله سبحانه، وما يستتبع هذه الحياة من النشأة الأخرى.

ولهذا نجد الآيات القرآنية معنية بإثارة السؤال في ذهن الإنسان ولفت نظره إلى استنطاق الأشياء واستثارتها؛ لإدراك دلالتها وما يكون وراءها ـ كما لاحظنا مثلاً بديعاً لذلك في آيات سورة الرعد ـ، ومثلها كثير من آيات القرآن الكريم، فهي تساهم في نقل الإنسان إلى آفاق من التأمل والتفكير واستنطاق كل ما حول الإنسان عما وراءه بأسلوب مميز في المضمون والأداء بما يكفي لتحفيز ذهن الإنسان وانتقاله إلى الصانع القدير.

ولذلك جاء في القرآن الكريم تعويل الرسل في أصل الإقناع بوجود الله سبحانه على دلالة الكون، كما قال

---

(١) نهج البلاغة ج:١ ص:٢٣ـ٢٤.

سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّـهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّـهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1].

ما أثر اكتشاف العوامل الطبيعية على الإذعان بالصانع[2]؟

السؤال الثاني: حول أثر اكتشاف العوامل الطبيعية للحوادث والأشياء على الإذعان بالصانع القدير:

لقد استطاع الإنسان ـ خصوصاً في العصر الحديث ـ أن يكتشف كثيراً من العوامل المؤثرة في الحوادث والأشياء التي كان يجهل سببها من قبل، وربما كان ينسبها إلى الفعل المباشر من الخالق. ولكن بان له الآن أن أسبابها طبيعية، وقد تمكن الإنسان من تحقيق إنجازات صناعية

---

(١) إبراهم:٩ـ١٠.

(٢) يُنظر في تفصيل هذا السؤال وجوابه (الأنباء الثلاثة الكبرى، وجود الإله) ص٣٨.

كبيرة في استثمار تلك السنن والعوامل على ما نشهده في الثورة الصناعية والزراعية الكبرى، فهل في ذلك ما يضعّف الإيمان بالخالق؟

الجواب: أنه لا شك أن الكون مبني على نظام الأسباب والمسببات، فهناك سنن كونية فاعلة تؤدي إلى نتائج مناسبة لها في جميع مجالات الكون والحياة، وتلك حقيقة مشهودة للإنسان بشكل عام قبل الثورة العلمية الحديثة.

وقد نبّه الدين على كثير من تلك السنن وأناط حصول النتائج المتوقعة بالأسباب المناسبة، حتى أنه أثبت سنناً تاريخية واجتماعية للحوادث العامة نظير القاعدة الاجتماعية الواردة في بعض الآيات الشريفة المتقدمة[1]، والتي يحسن استذكارها في الظروف الحالية التي نعيشها لصلتها بالمشاكل التي نكابدها، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[2]، ومضمون القاعدة أن الحدث الاجتماعي لن يحدث إلا بسبب

---

(١) تقدمت في ضمن آيات سورة الرعد التي تليت في بداية المحاضرة.

(٢) الرعد: ١١.

اجتماعي وليس بسبب فردي، ولهذا فإن وجود فرد صالح وحكيم ومخلص أياً كان لن يؤدي إلى تغيير في الحياة الاجتماعية، وتحويلها إلى مناحي الصلاح والحكمة إلا بمقدار ما يستطيع هذا الفرد أن يؤدي إلى تغيير المجتمع.

إذن لا شك في حقيقة ابتناء الكون على نظام الأسباب والمسببات، وهي بديهة من بديهيات حياة الإنسان إلا في موارد خاصة يتوقع الإنسان فيها تدخل عنصر غيبي.

لكن ذلك لا ينفي دلالة الأشياء على وجود الله سبحانه وتجسيدها لقدرته وإبداعه؛ لأن هذه السنن والنظم كلها أمور مجعولة أودعت في الأشياء وجبلت الأشياء عليها، ولم تكن لتحدث لولا ترتيب الأشياء على وفقها، وترتيب كياناتها على أساسها.

بل في هذه السنن المنظّمة والمعقدة دلالة مؤكدة على قدرة الخالق وإبداعه أكثر مما لو أنه سبحانه كان يباشر فعل كل شيء دون توسيط العوامل والأسباب، كما يجد ذلك العلماء الذين يكتشفون القوانين الفيزيائية العميقة التي بني الكون عليها كما أسلفنا من قبل.

وقد عبّر العالم الأمريكي (فرانسيس كولنز) ـ المشرف على مشروع الجينوم البشري ـ عن الجينوم بأنّه (كتيّب الإله)[1]، وهو فعلاً كذلك. فأيّاً كانت السنن المفضية إلى تكوّن هذا الخلق البديع، فإنّ هذا الخلق صفحات ساطعة ومضيئة وباهرة من المقدرة الإلهيّة.

وبإمكان الإنسان أن يتأمل ذلك فيفترض طوراً أن شخصاً ما قادر على حمل ثقل ويفترض طوراً آخر أن ذاك الشخص صنع آلة قادرة على حمل هذا الثقل، فالأول يدل على قدرة جسدية ولكن الثاني يدل على قدرة فكرية كبيرة جداً.

وعلى الإجمال.. فليس في جريان الأشياء على وفق السنن والأسباب ما ينفي استنادها إلى الخالق، على أنه يبقى هو المهيمن عليها والموجّه لها إلى وجهتها والقادر على توجيه دفّتها إلى حيث يشاء.

كيف يكتسب الإنسان الوعي اللازم ويثق به؟

السؤال الثالث: عن كيفية اكتساب الإنسان الوعي

---

(١) لغة الإله ص:١٢٤.

اللازم وثقته به.

والجواب: أن كل إنسان مزوّد بمستوى من الوعي، واستثارة هذا الوعي والوثوق به يتأثر بالظروف الذهنية التي يعيشها.

فقد يكفي لكثير من الناس ـ ممن لم يألف الشبهات والتفاصيل الغامضة ـ أن يتأمل بصفاء في هذا المشهد الكوني وروائعه، وقد يحتاج آخرون إلى إثارة السؤال في أذهانهم عن مصدر كل هذه الدقة والتعقيد والجمال، فإذا أثير السؤال أمامهم فإنهم سوف يهتدون إلى الإجابة بأنفسهم، مثل كثير من الحالات التي يسعف فيها الأستاذ التلاميذ بسؤال ينتقل الطالب من خلاله إلى الجواب لما فيه من تحفيز للفكر، وقد يكون الإنسان قد وقف على بعض الأسئلة والشبهات، فيحتاج في معالجتها لإزاحة الموانع التي تعيق حصول الوعي عنده، وفي هذه الحالة يحتاج الإنسان أن يرتقي في موضوع السؤال والشبهة إلى أفق فكري أعلى ومعلومات أوسع حتى يضمن فاعلية الوعي في ذهنه ويكون على بينة وبصيرة نحو مورد السؤال.

ضرورة البحث والمتابعة والتحري[١]

إن من الأخطاء التي يقع فيها الإنسان أنه قد يطلع أحياناً على بعض الأسئلة والشبهات، ولكنه لا يتابعها ويبحث عنها في مظان الإجابة عنها، بل يكتفي بالتشكيك والترديد، وهذه حالة لا يُعذر المرء عليها، بمعنى أنه يتحمل مسؤولية ما يقع فيه من الخطأ، وقد يكون خطؤه في بعض آثاره ونتائجه خطيئة.

فمن الصحيح أن يبحث الإنسان عن آفاق الحياة هذه ويستوثق منها؛ إذ لم يطلب الدين من المرء أن يذعن على سبيل محض التقليد والتلقين، بل أوجب على كل امرئ أن يكتشف الحقيقة بنفسه في تجربته في الحياة، وليست وظيفة الأهل إلا النصح والإرشاد، مثل وظيفتهم فيما يتعلق بالنظام الصحي الطبي والسلوك الاجتماعي الحكيم.

ولكن من الضروري أن يتوسل المرء بالسبل الصحيحة والقواعد المقبولة للاستيثاق من هذا الأمر

---

(١) يُنظر في تفصيل ذلك (ضرورة المعرفة الدينية) ص:٥٤ وما بعدها.

المهم.

إنّ كلّ إنسان يعلم بفطرته أن هناك قواعد في البحث عن الأشياء وتحرّيها، وهو يراعي هذه القواعد في الأمور التي يهتم بها مثل الزواج واختيار المهنة والتوفيق في الدراسة، فالأعزة السائرون في درب تحصيل العلم والمشغولون بالدراسات الجامعية يعلمون أن للتحقق الجاد في الشيء اقتضاءاته ولوازمه.

قواعد البحث عن الحقيقة وتحريها

١ـ قاعدة الاهتمام بالشيء بحسب مستوى أهميته

فمن قواعد البحث: الاهتمام بالشيء بحسب مستوى أهميته، فكلما كان الشيء أهم كان أليق بالاهتمام به وتحرّيه واستقصاء سبل البحث عنه والاستيثاق في شأنه، ونحن نجد في الدراسات الجامعية في مقام إعداد رسائل الماجستير والدكتوراه أن الباحث يسعى سعياً حثيثاً في كل جهة لكي يتضح له جانب من جوانب الموضوع ويهتدي إلى شيء جديد، وقد يسافر لأجل ذلك ويتغرب عن وطنه وأهله وذويه حيثما كان يقتضي الموضوع ذلك، ويسعى بعناء وتواضع للاتصال بكل من

يتوقع منه أن ينفعه في إعداد هذا البحث.

إنّ مسألة وجود الصانع ورسالته إلى الإنسان ببعث الرسل والأنبياء، وما تضمنته الرسالة من بقاء الإنسان بعد الممات ولقائه نتائج أعماله في هذه الحياة مسألة خطيرة جداً، بل هي أخطر المسائل التي يبتلى بها على الإطلاق، فهناك فرق كبير بين إنسان تُرك ليعيش كما يحلو له ثم يفنى، وبين إنسان يُسجّل عليه مستوى معرفته بآفاق الحياة الغائبة وسعيه في مساعي الخير والفضيلة أو خلافهما ويلزمه مضاعفات ذلك بحسبها، فيلقى بالخير خيراً وبالشرِّ شراً.

وعليه فليس من المعقول أن يكتفي المرء في البت في أمور مهمة ـ من قبيل وجود الخالق وبقاء الإنسان بعد الممات ـ بالاطلاع على بعض الأسئلة والشبهات، أو الاطلاع على أقوال بعض الوجوه والمشاهير، بل عليه أن يكون جاداً في هذا البحث، وليس من العجيب فيما لو أن همّاً من هذا القبيل أسهر الإنسان ليالي وشغل باله وتفكيره، حتى يستقر على أساس متين وموثوق كما نجد مثل ذلك منه في اهتمامات أساسية في الحياة، مثل الزواج والدراسة، بل في بعض اهتمامات هامشية أخرى مثل بعض الصداقات.

٢ـ قاعدة التناسب بين الإثارات التي يطلع عليها المرء، وبين الجهد المطلوب لمواجهتها

من قواعد البحث أيضاً: أن يكون تأمل المرء في الموضوع متناسباً مع حجم الإثارات التي يطلع عليها، فقد يستطيع الإنسان أن يصل إلى الموقف الصائب والرأي الراشد في موضوع ما بطريقة بسيطة بواسطة الأدوات التي جُهّز بها، ولكنه إذا نوقش في هذا الموقف ممن هو بارع في المجادلة فإنه يكاد يزيغ عن ذلك الموقف ولا يثق به، لا لقصور أو خطأ في إدراكه الأول، بل لأنه ابتلي بإثارات لا يملك أدوات كافية لحلّها، ولهذا يحتاج إلى مزيد من التأمل والمقارنة لبلورة الفكرة الصائبة والرأي السديد، على أن من الناس من لا تزعزع ثقته بالموقف الصائب في مقابل الجدل المطروح من جهة شعوره القوي بوجه صوابه، وانتباهه إلى أن الجدل العلمي يتأتى حتى بالنسبة إلى الأمور الواضحة.

ومن الملاحظ فيما يتعلق بموضوع وجود الإله أن هناك أسئلة بسيطة قد تُطرح كوجه للتوقف والتردد في وجوده سبحانه، مع أنّ شيئاً من البحث والمتابعة ولو باستشارة بعض أهل الخبرة كفيل بجلاء الموضوع بما لا

يبعد عن مدارك الباحث. ولا يسع هذا البحث لعرض نماذج من هذه الأسئلة[١].

٣ـ قاعدة لزوم الاهتمام بإنضاج الموقف

ومن قواعد البحث أيضاً: اهتمام الإنسان بإنضاج الموقف، فإنّ الإنسان يجد في حياته العمليّة ـ لاسيّما الكبار في العمر ـ مواقف خاطئة اتّخذها في أيّام الشباب لم تخلُ عن تسرّع وعدم نضج؛ ولكنّه بعد تراكم الخبرة يجد الخطأ فيها واضحاً من نفس الدلائل التي كانت تتراءى من قبل؛ ولكنّه لم يعِها حق وعيها، على أنّ من الناس من يستنكف الإذعان بخطئه ويتمسّك بالموقف نفسه إلى نهاية عمره.

ومن الأمثلة الرائعة لهذه الحالة ـ وهي حالة انتباه المرء لخطئه وتسرّعه في فترة شبابه وعدم استنكافه الرجوع بعد ذلك إلى الحقّ ـ : الفيلسوف البريطاني المعروف أنتوني فلو (١٩٢٣ ـ ٢٠١٠م)، إذ شكّك

---

(١) يُنظر كنموذج لذلك بعض الأسئلة التي طرحها الإخوة الحاضرون في هذا الشأن والجواب عنها وهي مذكورة في آخر المحاضرة.

الرجل ـ على الرغم من بيئته المسيحيّة ـ في وجود الصانع مبكراً واستمر في ذلك خمسة وستين سنة من عمره، وكتب في ذلك المؤلفات وشارك في كثير من المناظرات، حتّى كان يُعدّ أبرز فلاسفة الإلحاد في القرن العشرين، وكانت كتبه تُعدّ من المصادر البارزة في هذا المجال، ولكنه كان يتميز بفضيلة الاستعداد للرجوع عن الخطأ حين يثبت له ذلك، فلم تكن تأخذه العزة في أن يرجع عن الخطأ ويذعن للحق ويكرّر مقولة سقراط: (يجب أن نتبع الحجة أين قادنا الدليل).

لقد انتبه في بعض مناظراته الأخيرة في حياته تدريجاً إلى خطأ دفاعاته عن الإلحاد في مقابل بعض أدلة وجود الصانع، وساعد على ذلك كشف الجينوم البشري[1] ـ الذي هو أمر معقد وبديع للغاية ـ فأذعن بوجود الخالق وأشهر ذلك في سنة (٢٠٠٤م) مقراً على نفسه بالخطأ، ولم تكن انتقالته هذه على أساس تجربة إيمانيّة وروحيّة، فقد كان ذوقه الشخصيّ منذ أن كان مراهقاً بعيداً عن تذوّق العبادة وعالمها، مستثقلاً لها، وإنّما كان على أساس

(١) يُنظر: ليس هناك إله، ترجمة صلاح الفضلي ص:٩٢.

قناعة عقلية؛ ولهذا عبّر عن موقفه بأنّه كان (رحلة عقل) لا (رحلة إيمان).

واللافت في شأنه روح الحقّانيّة والإذعان بالحقّ، فقد كان أستاذ الملاحدة المعاصرين وشيخهم ومناظرهم، وكان عامّة تراثه في الانتصار للإلحاد، ولكنّه عندما شعر بخطئه أذعن بالحقيقة على رغم ما أوجبه ذلك من تعييبه والتشنيع عليه في الأجواء العلميّة عامّة والفلسفيّة خاصّة، حتى قيل عنه: إنّ موقفه هذا إنّما هو من جهة ما يعرف بـ(الرهبة قبل الموت)، لكنه كان قولاً متسرعاً وخاطئاً في حقه، لأنه لم يذعن بنبوّة الرسل والبقاء بعد هذه الحياة حتّى يتأتّى في حقّه هذا التفسير.

وليس المقصود اتخاذ تجربته ورجوعه إلى إثبات الإله حجّةً ودليلاً في الموضوع، فإنّ من قواعد البحث عن الحقيقة أن يتلمّس الإنسان شواهد الحقيقة بنفسه، فلا يُعرف الحق بالرجال، بل يُعرف الرجال بالحق، ومن أدخله قول الرجال في عقيدة أخرجه رجال آخرون منها.

ولكن المقصود لفت الانتباه إلى أن عدم نضج الرأي والتسرّع فيه قبل حصول الوعي الكافي يمكن أن يؤدّي إلى الخطأ في أمور حسّاسة ومهمّة ومصيريّة، وقد أذعن

العالم المذكور بأنّ تشكيكه في الصانع منذ شبابه كان تسرّعاً واغتراراً غير ضروريّ[١]؛ ولهذا أذعن بعد الانتباه الأخير بقيمة أدلّةٍ كان يُشكّك في دلالتها من قبل[٢]، وعليه فلم تختلف تلك الأدلّة ولكن اختلف الوعي الذي أوجبه الوقوف على بعض تعقيدات الحياة كنظام الجينوم البشريّ.

٤ـ قاعدة تجرد الإنسان عن أهوائه وميوله في تحريه للحقيقة[٣].

ومن قواعد البحث أيضاً: تجرد الإنسان عن الأهواء والميول التي توجب انحيازه إلى اتجاه دون آخر، فإننا نجد

---

(١) قال: (لقد قلت في بعض كتاباتي الإلحادية المتأخرة إنني وصلت إلى نتيجة بشأن عدم وجود إله بصورة متعجلة جداً، وبشكل مبسط جداً، والذي تبين لي فيما بعد أنها كانت أسباباً خاطئة). (لماذا هناك إله ص:٢٥، ترجمة د. صلاح الفضلي).

(٢) قال: (إن تراجعي عن الإلحاد لم يكن بسبب أي ظاهرة أو حجة جديدة.. وكان هذا نتيجة تقييمي المستمر لأدلة الطبيعة). (المصدر المتقدم ص:١٠٦).

(٣) يُنظر في تفصيل هذه القاعدة (القواعد الفطرية العامة للمعرفة الإنسانية والدينية، القاعدة التاسعة) ص:٢٢٧ وما بعدها.

في حياتنا ابتداءً من الحياة الأسريّة والعائليّة إلى الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة أمثلة لتأثّر الإنسان بالأهواء والميول والانفعالات والاستبعادات الأولية في المواقف التي يتخذها، فمن الضروري عند بحث الإنسان عن الحقيقة أن يستوثق من هذه الجهة، لأنه يتحمل مسؤولية النتائج التي ينتهي إليها، وهي مسؤولية تثقل وتتعاظم عندما تتعلق المسألة بالأمور المهمة والخطيرة.

نتيجة البحث: تَمَثّل الله في الكائنات كلها تمثلاً واضحاً

والنتيجة التي نخلص إليها هي أن وجود الله سبحانه هو أمر متمثل في الكون والكائنات كلها، وفي الإنسان وطاقاته وقابلياته وإمكاناته جميعاً؛ فالكون كله من أصغر ذرة فيه حتى أكبر مجرة خريطة منظمة ومرتبة ومنسّقة للغاية، وهي بذلك تمثل وجود الله سبحانه، كما تتمثل شخصيّة العالِم في كتابه وشخصيّة الفنان في أعماله الفنية وشخصية الرسام في لوحاته والصور التي رسمها، فتلك حقيقة لا ينبغي الجدال فيها.

هذا عن الجانب الموضوعي للموضوع.

أما تبصّري الشخصي في أمر اليقين بوجود الله تعالى: فإنني اهتديت إلى وجود الله سبحانه في المرحلة الأولى من خلال معالم الكون والكائنات بهداية من القرآن الكريم، فصورة المشهد الكوني وما فيها من الكائنات المتنوعة صورة مشرقة ومذهلة بما فيه من الروعة والجمال، فهو يحكي عن عقل وتدبير وراءها لا محالة.

لقد كان هذا القرآن الكريم أكثر من رائع في تحفيز فكري إلى التأمل في آفاق السماء ومشاهد الأرض، حتى كأنني أحلّق عالياً عندما أنتقل إلى التفكير في تلك الآفاق الواسعة الكبيرة، وعند ملاحظتها من خلال النظر إلى السماء في إطلالة النهار وفي غياهب الليل، أو الاطلاع من خلال الأجهزة الحديثة على أعماق الكون والمجرات والبحار وتنوع الكائنات الحية، والمشاهد الجميلة كالشلالات والجبال والوديان والغابات، ويزداد عندي هذا الشعور لدى تلاوة القرآن الكريم بتدبر، لروعة لغة القرآن وجمالها، لأنها تعبر عن المشهد الكوني من أفق عالٍ وتستنطق المشاهد الكونية استنطاقاً ذكياً ولطيفاً للغاية، وتنتقي مفردات رائعة في نبرتها المنسجمة مع اتجاه الكلام

وغايته، مع ما تشتمل عليه جمله من وزن لطيف وفواصل متناسبة.

كما جاء في سورة (ق): ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، وجاء في سورة الغاشية[1]: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[2].

إن الخطاب القرآني خطاب وجداني راشد فهو يخاطب عقل الإنسان ويستثيره استثارة تملأ الوجدان وتوجب الطمأنينة وتورث القناعة العميقة.

لقد كان وجود الإله هو التفسير الملائم لهذا الكون في دقته وجماله وتفاصيله، فهو يحل اللغز الذي يتراءى فيه

---

(١) الغاشية:١٧ـ٢١.

(٢) ق:٦ـ١١.

لمن تأمل في مصدر كل هذا النظم والروعة والجمال.

وعند دراسة العلوم ذات العلاقة توسع اطلاعي على المشاهد الكونية التي تُرى بالآلات الدقيقة سواء فيما يتعلق بالكائنات السماوية من الأجرام الكبيرة والمجرات العظيمة التي يحتار فيها الفكر من كبر حجمها وعظمتها ونسق ترتيبها أو فيما يتعلق بالكائنات الأرضية من أنواع الحيوانات التي لم أكن شاهدتها على نحو مباشر لتوزعها على هذه البسيطة أو وجودها في الماء في أعماق البحر، فكان تنوعها وخصائصها وألوانها وتدبيرها لمصلحتها أمراً رائعاً للغاية، أو فيما يتعلق بمكونات الكائن الواحد من قبيل الذرات ومكوناتها والعناصر المتكونة منها والخلية التي تكوّن الكائن الحي وتعقيد خارطتها وجمالها. أو فيما يتعلق بالنفس الإنسانية وقابلياتها وخصائصها بين الحيوانات، فكل تلك المشاهد والمعلومات الممتعة التي تيسرت بفضل الإمكانات الحديثة صور مشرقة وممتعة وممثلة لإله حكيم ومبدع لا محالة.

وأعظم من ذلك ما كشفته العلوم الحديثة من قوانين كونية منظمة على وفق معادلات رياضية وأرقام محددة بنحو من الإحكام والإتقان في علوم الفيزياء والكيمياء

والأحياء وغيرها، وقد تمثل منها ضرب من الجمال والتناسق حتى في تلك المعادلات على الرغم من غموض كثير منها.

فهذا الكشف لن يدع مجالاً للشك في هيمنة خالق حكيم ومبدع على هذا الكون.

ولهذا أصبح العلم أقرب من أي وقت مضى من الإذعان بالله سبحانه من المنطلق العلمي البحت وليس من المنطلق الروحي ولا الديني، بل شاع بين علماء الطبيعة لا سيما الفيزيائيون إثبات وجود الإله على أساس قواعد الفيزياء المكتشفة التي بُني عليها الكون، على الرغم من أنهم لم يقروا بالدين (بمعنى وجود رسالة من الله تعالى إلى الإنسان) وهو ما يعبر عنه بالاتجاه الربوبي، والمراد به الإذعان بوجود الإله فحسب دون الرسالات.

ولهذا أتعجب من ميل بعض الشباب في مجتمعاتنا إلى التوقف في وجود الإله، مثيراً أسئلة بسيطة لا غموض في الجواب عنها، وأعجب من ذلك نفي وجود الإله بضرس قاطع، مع أنه ليس هناك أي مأخذ علمي للبتّ به. وإنني أوصيهم من منطلق تجربتي في هذه الحياة بمزيد التثبت في هذا الأمر، والحذر من التأثر في إنكار مثل هذا

الأمر الواضح والواعي من عوامل غير موضوعية[١] لن يعذر المرء بحسب موازين البحث العلمي في التأثر بها من قبيل ما يقع باسم الإله أو باسم الدين.

ولقد لاحظت أن موجة الإلحاد نشطت في العصور الأخيرة في حقبتين تأثراً بهذا العامل..

الأولى: في أوربا في أوائل النهضة العلمية الحديثة؛ لأن التعامل الفظّ لرجال الكنيسة مع حركة التجديد في العلم واضطهاد العلماء بسبب مخالفة أطروحاتهم للكتاب المقدس وتفسيراتها المبنية على علوم اليونانيين أدى إلى نحو مباعدة بين أهل العلم ورجال الدين في الغرب، ولا يزال ذلك محسوساً حتى العصر الحاضر.

الثانية: في الحقبة الأخيرة في البلاد الإسلامية وسائر بلاد العالم على أثر الأعمال الوحشية والخاطئة التي وقعت من بعض من يتحدث باسم الإله أو ينتمي إلى الدين، فقد أثار ذلك في نفوس بعض الناس إنكار حقانية الدين بشكل مطلق ثم الترقي إلى إنكار الإله.

---

(١) ينظر في تفصيل العوامل غير الموضوعية التي يمكن أن تؤدي إلى الوقوع في الخطأ في شأن وجود الإله وحقانية الدين خاتمة (القواعد الفطرية العامة) ص:٣٧١ وما بعدها.

لقد اطلعت على ما أثاره المشككون والنافون لوجود الإله سواء منها ما طرح قديماً في علم الكلام والفلسفة أو ما طرح حديثاً من قبل بعض علماء الطبيعة، وقد لاحظت أن هذه الإثارات تبدو متكلفة لن تقف أمام الإدراك الموضوعي والوجداني من دلالة روعة الكون في كل تفاصيله الظاهرة والباطنة على وجود الإله.

وإنما نشأ ذلك من أحد أمرين:

الأول: تجاوز القواعد الفطرية العامة للمعرفة الإنسانية بالمبالغة في التشكيك والتنكر للبديهيات الوجدانية كقول القائل: إن من الجائز حدوث شيء بلا سبب(١).

الثاني: سوء استخدام المعلومات المنبثقة في العلوم الطبيعية مما أدى إلى اصطناع مقابلة خاطئة بين العلم وبين إثبات وجود الإله(٢).

---

(١) قد وصفت ذلك في (القواعد الفطرية العامة للمعرفة الإنسانية والدينية) وسيأتي توضيح مثال إنكار قاعدة (حاجة الحادث إلى سبب) في قسم الأسئلة.

(٢) وقد تعرضت لذلك في (الأنباء الثلاثة الكبرى، وجود الإله) من سلسلة منهج التثبت في الدين.

إن عظمة الكون وروعته حقاً عظمة هائلة ومذهلة وتدعو إلى الخشوع والتعظيم لهذا الإله القدير، حسب طبيعة الإنسان في الإعجاب بالكمال ورموزه كما نجد تقديره للمتميزين في العلم والاختراع والرياضة وغيرهم.

وهنا يخطر في ذهن كل إنسان سؤال: وهو أنه هل هناك من سبيل للإنسان إلى هذا الإله، وهل هذا الإله معنيٌّ بالإنسان، فهو يستمع للإنسان إذا خاطبه أو هو معرض عنه؟ وهل هذا الإله صانع مبدع فحسب أو هو محب للخير وكاره للشر؟ وهل له قيم أخلاقية يراعيها، أو يتصرف كما يشاء من منطلق هيمنته المطلقة على الكون والكائنات؟

لقد تضمن الدين إثبات هذه المزايا فعلاً للإله، فللإنسان سبيل إليه تعالى وهو معنيٌّ به ومحب للخير ويراعي القيم الفاضلة.

وإنني أجد ذلك كله قريباً في تأملاتي لنفسي من منطلق فطري ووجداني.

فمن القريب أن يكون لهذا الإله قيم أخلاقية يراعيها كما جاء عنه في الدين أنه يلتزم الصدق والوفاء بالعهد

والعدل وسائر المعاني الفاضلة، وذلك لأنه كائن مدرك ومختار على ما يدل عليه إيجاده للكون، ومن كمال أي كائن كذلك أن يلتزم المعاني الفاضلة سواء في أفعاله هو، أو في تعامله مع سائر الكائنات العاقلة، كما نجد ذلك لدى الإنسان.

وعليه فالمتوقع أن الإله يحب الخير وفاعله، ويكره الشر ومرتكبه كما جاء في الدين، لأن حب الخير والتفاعل معه قيمة أخلاقية كما أن كراهة الشر قيمة أخلاقية أيضاً.

إنني أتوقع وأتمنى أيضاً من هذا الإله أن يكون معنياً بالإنسان، يتواصل معه ولا يترفع عن مخاطبته وسماع مناجاته؛ لأن الإنسان أيضاً كائن عاقل مختار ذو ضمير أخلاقي، ومن طبيعة كل كائنين كذلك يطلع أحدهما على الآخر أن يكون معنياً به، فإذا كان الإله خلق هذا الإنسان العاقل المدرك فالمفروض من حكمته الاهتمام به حسب ما يراه مناسباً.

فهذا ما أستقربه وأتوقعه وأتمناه في شأن هذا الإله.

ولكن هل هذا الاستقراب جازم، وهذا التوقع صادق، وهذا التمني واقع؟ ذلك ما يتحدث عنه بحث مدى حقانية الدين، وإنما كان محور بحثنا هذا أصل

وجود الإله، ولكني أردت الإشارة إلى أن إثبات الإله المدرك القدير يمهّد بنحوٍ ما لفهم خصائصه في الدين.

إنني أختم هذا البحث بآيات أخرى من القرآن الكريم تنبّه الإنسان على الظواهر الكونية الرائعة التي تشهد على وجود خالق مبدع للكون.

قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّـهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

---

(١) الروم:١٧-٢٤.

أسئلة وأجوبة

من أوجد الخالق للكون

السؤال الأول: أن هناك اعتراضاً معروفاً على استكشاف وجود الإله من خلال الكون وهو أن هذا الاستكشاف يبتني على أساس أن لكل شيء خالقاً، فيرد السؤال حينئذٍ: من خلق الخالق للكون، لأنه أيضاً شيء، فلا بد له من خالق أيضاً، ثم إن خالقه أيضاً شيء وهكذا، فتصير الأمور إلى ما لا نهاية له، وهذا خاطئ طبعاً، وعليه لا بد من الإذعان بشيء لا خالق له، فليكن هو هذا الكون نفسه بصورة أولية.

الجواب: أن هذا الاعتراض المذكور خاطئ؛ إذ لا يقع الاستدلال على وجود الإله على أساس قضية (أن لكل شيء ـ من دون تحديد ـ خالق)، بل كان هناك تحديد لـ(الشيء) في هذه القضية بأحد أوصاف ثلاثة ـ وفق الأدلة الثلاثة المتقدمة في أصل المحاضرة ـ:

الأول: وصف (منظَّم)، فالقضية هي (أن لكل شيء منظَّم سبباً عاقلاً).

الثاني: وصف (متغير)، فالقضية هي (أن لكل شيء متغير سبباً).

الثالث: وصف (حادث)، فالقضية هي (أن لكل شيء حادث سبباً).

وإذا اعتمدنا الوصفين الأخيرين فلا محل للاعتراض المذكور أصلاً، لأننا على وفق **الدليل الثاني** سوف نكتشف من الكون المتغير إلهاً (غير متغير) للكون فهو لا ينتقل من حالٍ إلى حال، كما جاء ذلك في نصوص دينية كثيرة خاصة في كلمات الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة. والإله غير المتغير ليس كالكون المتغير طبعاً، فلا يتوقف وجوده على شيء يوجده.

ونحن على وفق **الدليل الثالث** سوف نكتشف للكون الحادث إلهاً غير حادث وقديم، فهو بذلك يستغني عن السبب.

وأما الدليل الأول: الذي يثبت وجود الإله من خلال نظم الكون: فقد يتراءى في بادي النظر توجه الاعتراض المذكور عليه لأنا نريد أن نكتشف من هذا الكون المنظم كائناً مميزاً استثنائياً وفريداً لا سبب له، بل هو قديم، ليكون صانعاً لهذا الكون المنظّم. وإذا جاز أن يكون هناك شيء مميز من غير سبب فليكن هذا الكون نفسه، وإذا لم يجز ذلك فإن وجود إله مميز لا ينهي الأمر، لأن هذا الإله يحتاج أيضاً إلى سبب مميز لأنه مميز، وهكذا

سببه المميز يحتاج إلى سبب مميز، ويستمر ذلك إلى غير نهاية.

والجواب على ذلك: أن التميز على نوعين:

الأول: وجود وضع منظّم في كائنات غير عاقلة من غير سبب عاقل. فهذا أمر ينفيه العقل ويرى أن النظم والتناسق والتقنين نتيجة التعقل والمعرفة والتدبير، فلو سقط (كمبيوتر) من السماء لرأى العقل أن هناك في السماء كائناً عاقلاً على حد وجود الإنسان على الأرض. ومن يطلع على دقائق المشهد الكوني يعلم أن هذا الكون أعقد من (الكمبيوتر) الساقط من السماء بمرات عديدة ولكن المشهد الكوني واسع وموزع ومعتاد، ويحتاج المرء لفهم ذلك وتجميعه إلى مزيد من الوعي والانتباه.

الثاني: وجود كائن عاقل بمواصفات وقدرات مميزة، من غير أن يوجده كائن آخر عاقل، وهذا أمر لا ينفيه العقل الإنساني بتاتاً، لأن الكائن العاقل هذا ينتهي اليه ما نجده من مظاهر العقل والمعرفة في الكون لا محالة، فكيف يقضي العقل بأنه لا كائن عاقل إلا وراءه كائن عاقل آخر.

فظهر من ذلك أن الاعتراض المذكور خاطئ، ولا يفند شيئاً من الأدلة الثلاثة لوجود الإله وهي بيان النظم

وبيان التغير وبيان الحدوث.

هل يجوز حدوث العالم من لا شيء

السؤال الثاني: يقول (ستيفن هوكينج): إن بالإمكان تفسير وجود العالم بواسطة الانفجار الكبير، ولا حاجة إلى وجود خالق للكون، فما تعليقكم على ذلك؟

الجواب: إن المعروف عن نظرية الانفجار الكبير أنها تمثل بداية الكون، وإذا صح ذلك فإن السؤال يقع عمّن أوجد هذا الكون من الانفجار الكبير؛ لأن كل حادث يحتاج إلى سبب وذلك أمر بديهي وقد تقدم توضيحه، فلا بدّ لهذا الكون الحادث من علة.

يضاف إلى ذلك أن الانفجار وقع في كتلة كثيفة أولية كانت موجودة قبل الانفجار طبعاً، وليس هناك أي عامل داخلي يُفرَض في تلك الكتلة يوجب حدوث الانفجار فيه، فلا بد من حدوثه بفعل عامل خارجي وليس إلا الإله.

ولا يصح ما قد يُحكى عن (هوكينج) من أننا لا نعلم كيفية حدوث الكون، فلربما حدث من لا شيء، ولعل العلم مستقبلاً يتمكن من تفسير ذلك.

ووجه عدم صحة هذا القول: أن قضية: (عدم إمكان حدوث شيء من دون سبب)[١] قضية عقلية بديهية، لا مجال لتدخل العلم فيها لا حالاً ولا مستقبلاً، وهناك فرق بين المساحة التي يتردد فيها العلم ـ ويمكن أن يؤدي فيها إلى اكتشاف جديد ـ ، والمساحة التي تحكمها مبادئ ثابتة يتحدد بها الممكن والمحال.

إن مجال تخصص العالم الفيزيائي المذكور هو الفيزياء لا الفلسفة، وفي هذه الحالة لن تكون المخارج الفلسفية التي يقترحها ناضجة بالضرورة، كما سبق توضيح ذلك[٢].

---

(١) يُنظر تفصيل ذلك في (القواعد العامة والفطرية للمعرفة الإنسانية والدينية)، القاعدة: الرابعة ص:١٠٩.

(٢) وقد ينقل عن (هوكينج) مقولة أخرى، وهي: أن من الجائز أن تكون مادة الكون أزلية ولكنها تكون مجتمعة ثم تنفجر ثم تنقبض بعد الانفجار من جهة انتهاء الطاقة الناشئة من الانفجار المبعّدة بين أجزائه فتعود كتلة مكثفة ثم تنفجر مرة أخرى وتعود.. وهكذا في سلسلة لا نهاية لها.

ولكن يلاحظ على ذلك ما يأتي:

١ ـ أن هذا المقدار لا ينفي دلالة الكون بنظمه وروعته على حدوثه ـ وهو **الدليل الأول** المتقدم لدلالة الكون على الخالق ـ ، لأن الكون

وإن كان في البداية ـ على وفق الافتراض المذكور ـ كتلة انفجرت فحدثت الكائنات من خلال التطور، إلا أن تلك الكتلة لم تكن بطبيعة الحال شيئاً اعتيادياً، بل كانت ذات استعدادات فائقة ومميزة مختزنة لعوامل انفجار دقيق ومثمر يمكن أن تؤدي إلى هذا الكون الرائع والكائنات المميزة. وعليه فتلك الكتلة في نفسها تكون رائعة ومعقدة ومقننة فهي دليل على وجود كائن عاقل أوجدها.

٢ ـ أن هذا المقدار لا يوجب استغناء الكون عن السبب لما تقدم في **الدليل الثاني** المتقدم من أن كل متغير يحتاج إلى سبب وراءه مهما تعددت حلقات التغير فيه، وذلك: أن أية سلسلة تتألف من أشياء متعددة ـ بعضها سبب لبعض آخر ـ تنتهي إلى مبدأ محدد ولا يعقل أن لا يكون له أية بداية، لأننا نسأل عن هذه السلسلة بمجموعها هل هي ذات سبب أو لا؟

فإن قيل: إنها لا سبب لها كان ذلك منافياً لكون كل حلقة من حلقاتها مسببة عن حلقة سابقة عليها لأنه في حال جمع عدة أشياء كل واحد منها مسبّب يكون المجموع بطبيعة الحال مسبباً، ولا معنى لاستغناء مجموع الأمور المسببة عن السبب تماماً.

٣ ـ أن الفرضية المذكورة ربما تكون غامضة وبعيدة من المنظور الفيزيائي من أكثر من جهة، ومن جملة ذلك: أن مقتضى هذه الفرضية أن الطاقة المنبعثة من الانفجار الكبير هي التي تحافظ على تكوين الذرات المتعددة وتعدد أجزاءها، فلو انتهت تلك الطاقة لاتحدت النواة داخل الذرة مع الإلكترونات بفعل الجاذبية الثابتة لكل جسم ثم التصقت الذرات بعضها ببعض لتعود كتلةً مكثفةً

مدى انسجام العوارض السلبية في الكون كالأمراض مع نشأته من كائن هادف[١]

السؤال الثالث: إذا كان للكون صانع عليم وقدير فالمفروض أن لا يكون هناك أية نقائص وسلبيات في الكون والكائنات، مع أنّا نشهد حوادث تبدو سلبية كالزلازل والفيضانات وانفجار البراكين والأمراض الطارئة على الكائنات الحية، فهل تلائم هذه الحوادث وجود صانع عليم وقدير للكون؟

مرةً أخرى، وهذا أمر بعيد لأن الجاذبية العامة للجسم عامل ضعيف كما تقرّر فيبعد تأثيرها إلى المستوى الموصوف.

ومن هذه المناقشات يتضح أن القول المذكور لا يمكنه أن يفند الدليل الأول لدلالة الكون على الخالق المعتمد على نظم الكون، ولا الدليل الثاني المعتمد على تغير الكون. وإنما يتوقع فيه أن يفند الدليل الثالث المعتمد على حدوث الكون، وذلك بادعاء أنه لا دليل على حدوثه من خلال نشأة الكون عن الانفجار الكبير لجواز افتراض تكرار الانفجار والعودة إلى الكتلة الأولى إلى لا نهاية، لكن هذا التوقع أيضاً ضعيف؛ لأن الافتراض ضعيف جداً.

(١) يُنظر تفصيل هذا السؤال والجواب عنه في (الأنباء الثلاثة الكبرى، خصائص الإله) ص:٢٢٠ وما بعدها.

الجواب: أنه ربما كان ذلك ممكناً، بأن يوجد الخالق مثلاً الكائنات الحية من النباتات والحيوانات والإنسان على نظام بديل لا يعرضه المرض والذبول والنقصان والعناد والعناء، ولكن من الجائز أن تكون هناك اعتبارات أخرى مرجحة لخلقها على نظام تكون تلك الكائنات فيه عرضةً لذلك، مما يؤدي إليه هذا النظام من تطور الكائنات وتعاقب الأجيال ووفاء الإمكانات بإعاشة تلك الكائنات واكتشاف فوائد الأشياء وخواصها وامتحان الإنسان أو غير ذلك.

إنّ السؤال عن سبب خلق الله سبحانه الإنسان ـ مثلاً ـ على هذا الوجه دون ذاك أمر لا يمكن أن يؤدي بنا إلى استنتاج محدد.

توضيح ذلك: أنه لا ينبغي الشك في أن لهذا الكون خالقاً يتصف بالحكمة والعقلانية والعلم والتدبير والإبداع والمقدرة الكبيرة كما يتمثل في عظمة الكائنات وتعقيدها، وهذا أمر واضح وبديهي.

ولا يمكن تحدّي أصل هذا المعنى بسؤالات أو اقتراحات تخطر في ذهن الإنسان لتجويد الخلق؛ إذ لا يحيط الإنسان بقابليات الأشياء ومقتضيات النظام

الكوني والاعتبارات التي لاحظها الخالق في إيجادها.

إن وجود الصانع واتصافه بأوصاف من قبيل ما ذكرنا بديهة كبرى بالنظر إلى ما يتمثل في الخلق من وجوه لا تعد ولا تحصى من النظم والتعقيد والإبداع، ومهما كان هناك سؤال عن الحكمة في هذا الشيء أو ذاك فإنه لا يمكن أن ينفي تلك القدرة المحسوسة في إيجاد الخلق، فلو لاحظنا بناء يتصف بهندسة مميزة في أصل كيانه وتفاصيله ولكننا خطر في أذهاننا تساؤلات حول سر بعض الترتيبات فيه واقتراحات لتحسين بعض خصوصياته، فهل في ذلك ما ينفي أن مخطط هذا البناء مهندس قدير وبارع؟!، كلا، بل الذي قد نتوقعه عند التأمل أن لا يكون قد غاب عنه ما يحضرنا ويخطر في ذهننا ولكنه لاحظ اعتبارات لا يسعنا الاطلاع عليها؟

إن من الضروري انتباه الإنسان عند التأمل في شأن الله سبحانه وصفاته وأفعاله إلى أن هناك مساحتين في الموضوع:

مساحة تتصف بالوضوح والجلاء والسطوع، وهو أصل وجود الله سبحانه وعظيم علمه وقدرته وإبداعه مما يتمثل تمثلاً عينياً في الكون والكائنات، كتمثل علم العالِم

في كتابه وكتاباته وتمثل فن الفنان في رسومه ومنحوتاته وتمثل علم المهندس في الأبنية التي خططها.

ومساحة تتصف بالغموض والإبهام مثل كنه ذاته وصفاته وبعض الاعتبارات الملحوظة في بعض أفعاله ومخلوقاته.

ووجود هذه المساحة في شأن الله سبحانه أمر طبيعي ومتوقع من جهة الفاصل بين علمه وإحاطته وبين مستوى علم الإنسان ومعرفته، فإن من شأن مثل هذا الاختلاف في المستوى أن يوجب وجود مساحة مبهمة وغامضة، وليس من المنطقي والمعقول تحدي الجوانب الساطعة والواضحة والمضيئة والبينة بإثارة أسئلة حول الجوانب الغامضة والمبهمة.

إن إثارة الإنسان السؤالَ حول مساحات معرفية لا يملك أدوات معرفية للتوغل فيها ـ مثل الأمور المتعلقة بالعوالم غير المادية ـ لا يكون مؤدياً إلى اكتشاف شيء مجهول، ولن يفضي إلى تحدي الأمور المعلومة والواضحة فضلاً عن إلغائها.

كما نرى ـ مثلاً ـ أن الطفل إذا سأل عن أمور فوق مداركه فهو لا يستطيع بمجرد إثارة السؤال من الوصول

إلى اكتشاف شيء جديد يتنافى مع مدركاته الواضحة. وتلك قاعدة منطقية عامة واضحة في ميادين الحياة كلها.

إن من الأمور المنطقية في المعرفة الإنسانية تحكيم الأمور الواضحة والساطعة على الأمور الغامضة والمبهمة، بمعنى تجويز وجود مخرج في مواضع الغموض يلائم ما يتمثل في تلك الأمور الواضحة، ولا يصح العكس بأن نثير الشك في الأمور الواضحة من جهة الغموض في أمور أخرى.

وهذا المعنى أصل عام وحكيم يقتضيه المنطق وتؤكده الممارسة والتجربة، وله تطبيقات ميسرة في حياتنا العامة والخاصة، فمن عرف صديقاً له صفات حسنة واستوثق منه طيلة مدة طويلة ثم عرض له موقف يتراءى منه خلاف ذلك فإن من العقل أن يقدر لهذا الموقف المفرد المتشابَه مخرجاً، حتى لو لم يخطر هذا المخرج في ذهنه فإنه يتمسك بما يعلمه منه من الأخلاق الفاضلة ويقول: لعلّ له مخرجاً.

ومن الضروري أن لا يخلط الإنسان بين حالتين (حالة الشيء الغامض) و(حالة الشيء الواضح في إثبات شيء أو نفيه)، فالأشياء الغامضة لا يمكن اعتبارها أدلة

ومؤشرات على شيء محدد، بخلاف الأشياء التي تتضمن مؤشراً واضحاً في اتجاه معين، ومن الجدل الخاطئ أن نسعى إلى الاستدلال بالشيء الغامض في اتجاه معين.

وليس هناك شك في وجود ظواهر في الكون تكون غامضة في حال نشأة الكون من عقل مدبر، ولكن لا يمكن أن نعدّ تلك الظواهر مؤشرات دالة على عدم نشأة الكون عن عقل وتدبير مع عظيم ما فيه من التخطيط والتقنين والإبداع والجمال على كائن فوق المادة قد أوجد ذلك.

وبهذا الأصل نتم الحديث في هذا اللقاء، مكتفين بما تقدم من الأسئلة، واللهَ نسأل أن يوفقنا في هذه المسيرة ولا يخرجنا من الحياة حتى يرضى عن مسيرتنا وسلوكنا فإنه القيّم على الكون والكائنات كلّها في ماضيها وحاضرها وغاياتها.

والحمد لله رب العالمين.

الفهرست

محور البحث وأهميته	٦
دلالات الكون والكائنات على وجود الإله	٧
التوضيح العلمي لدلالة الكون على الله سبحانه	١١
دلالة نظم الكون على الخالق	١١
دلالة تغيّر الكون على الصانع	١٦
دلالة حدوث الكون على الصانع	١٨
تلخيص واستنتاج	٢٢
ما سبب غياب الدلالة على الصانع عن ذهن الإنسان	٢٤
بيان العامل النفسي لانطفاء دلالة الأشياء	٢٤
اكتشاف سبب انطفاء دلالة الأشياء على الخالق	٢٦
أهمية وعي الإنسان في إحياء تلك الدلالة	٢٧
مدى العلاقة بين الوعي والعلم	٢٩
عناية الرسالات الإلهية بتحفيز فكر الإنسان	٣٢
ما أثر اكتشاف العوامل الطبيعية على الإذعان بالصانع	٣٥
كيف يكتسب الإنسان الوعي اللازم ويثق به	٣٧
ضرورة البحث والمتابعة والتحري	٣٩
قواعد البحث عن الحقيقة وتحريها	٤٠
١ـ قاعدة الاهتمام بالشيء بحسب مستوى أهميته	٤٠
٢ـ قاعدة التناسب بين الإثارات التي يطلع عليها المرء، وبين الجهد المطلوب لمواجهتها	٤٢

٣ـ قاعدة لزوم الاهتمام بإنضاج الموقف ٤٣
٤ـ قاعدة تجرد الإنسان عن أهوائه وميوله في تحريه
للحقيقة ٤٦
نتيجة البحث: تَمَثّل الله في الكائنات كلها تمثلاً واضحاً ٤٧
تبصّري الشخصي في أمر اليقين بوجود الله تعالى ٤٨
أسئلة وأجوبة ٥٧
من أوجد الخالق للكون ٥٩
هل يجوز حدوث العالم من لا شيء ٦٢
مدى انسجام العوارض السلبية في الكون
كالأمراض مع نشأته من كائن هادف ٦٥